

تقنيات البحث الميداني في الأنثروبولوجيا

1

مدخل:

قبل التطرق إلى التعريف بتقنيات البحث الميداني في الأنثروبولوجيا، ينبغي على الطالب الاطلاع على تاريخ علم الأنثروبولوجيا، وعلاقته بالشعوب البدائية، ثم توضيح العلاقة بين المفاهيم الأنثروبولوجية الكبرى وخصائص وأهمية كل مفهوم في البحث الميداني وأهم التقنيات التي برزت في كل مرحلة.

الأنثروبولوجيا والشعوب البدائية:

درس الأنثروبولوجيون العديد من الشعوب البدائية، واكتشفوا أحوالهم ومعيشتهم، ونظمهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ونظم الملكية، والحكم، والزواج، والعادات والتقاليد، والدين والسحر والطقوس.

فمنهم من اكتشفها من خلال ما كتب على هذه الشعوب في الروايات والأساطير والكتابات المختلفة على الصخور، ومن خلال الرموز التي وجدت عندهم (أي بواسطة الملاحظة غير المباشرة).

ومنهم من عايش هذه الشعوب واستطاع أن يكتشف بنفسه حياتهم بكل نظمها وثقافتها. وهذه المعيشة هي التي يصطلح على تسميتها بالمعاينة الميدانية (أي بواسطة الملاحظة المباشرة).

-المفاهيم الأنثروبولوجية الكبرى:

1-الإثنوغرافيا: Ethnographie/علم خصائص الشعوب/ الناسوت:

يجمع معظم الدارسين أن لفظة إثنوغرافيا تعبر عن الجزء الوصفي من النياسة. وللعلماء وجهات نظر متداخلة ومتكاملة في تعريفهم لهذا المفهوم، حيث يعتبر ليفي ستروس الإثنوغرافيا المرحلة الأولى من البحث وتتمثل في

مرحلة جمع المعطيات والملاحظات والمعاينات الميدانية.¹ وعلى حد قول جاك لومبار أيضا يتخذ هذا الوصف صيغة المونوغرافيا لتقنيات أو زواج أو عادات وعبادات دينية عند جماعات أو تنظيمات اجتماعية معينة. غير أن راد كليف براون يرى أن الأثنوغرافيا هي معاينة الظاهرة الثقافية ووصفها خاصة عند الشعوب البدائية.

حتى نهاية القرن 19 كانت الإثنوغرافيا مجسدة في ما يقوم به المبشرين والإداريين لجمع المعرفة عن الجماعات التي يصفونها، فقد وصفت بعض القبائل البدائية من ماليزيا، وجنوب إفريقيا، ومع ذلك لم تبدأ الإثنوغرافيا كفرع أساسي في تطوير المعرفة إلا عندما تأكد أن الباحث نفسه هو الذي يجري بحثه فوق الميدان وأصبحت ملاحظاته المباشرة جزءا من بحثه. ومنذ بداية الثلث الأول من ق20 فهم الباحث أن البحث الأثنوغرافي يفرض عليه مغادرة مكتبه والاشتراك مع أصحاب المهمات والسياسيين للقيام بالتحقيق الميداني بصفة علمية موضوعية،². ويعتبر مالينوفسكي وبواس من المؤسسين الكبار لهذا العلم لما قدموه من أبحاث وتحقيقات ميدانية أعطت تميزا للبحث الأنثروبولوجي ومنهجهم الموضوعي.

يهتم الباحث الإثنوغرافي بجمع المعطيات الميدانية ويستخدم في ذلك وسائل متعددة كالأشكال والصورة والفنون الموسيقية والوسائل المادية الأخرى. إن الطريقة المثلى تكمن في الاندماج والمعيشة المستمرة لمعرفة الإطار الثقافي للأفراد والجماعات.

تلزم الإثنوغرافيا الباحث بالقيام بعدة أدوار شخصية، حيث يلتزم ويلاحظ ويعاين ويتقابل بأسلوب مباشر مع الأفراد والجماعات التي تكون موضوع بحثه. بينما راد كليف ينظر إلى (الإثنوغرافيا) على أنها مرحلة معاينة الظاهرة ووصفها خاصة عند الشعوب البدائية (المتخلفة).

2- الإثنولوجيا: Ethnologie/علم الأقالم/ النياسة:

¹- جاك لومبار، 1997 ص 12.

²- f.Laplantine.2001.P.

تهتم بتفسير بيانات المرحلة الأولى من العمل الميداني وغالبا ما تستخدم المنهج المقارن، وتحاول في ذلك رد كل ظاهرة اجتماعية أو ثقافية أو روحية إلى أصولها الأولى، وفي هذه الحالة تقترب من علم الإناسة (الأنثروبولوجية).

-إن الاثنولوجيا/أو النياسة هي المرحلة الثانية من البحث الأنثروبولوجي، وهي بداية تفسير المعطيات حسب ليفي ستروس. ويعتبر مارسيل غريول أول من حدّد هذا المفهوم في فرنسا خلال الخمسينيات من القرن 20 بأنها ذلك الفرع المعرفي الذي يهتم بنشاطات الشعوب المادية والروحية، حيث يدرس تقنياتها وأديانها وشرائعها ومؤسساتها السياسية والاقتصادية وفنونها ولغاتها وأعرافها.³ بينما يرفض الأمريكيون والبريطانيون استخدام كلمة Ethnology لأنهم يرون فيها نوع من التفسير ولا تمثل علما قائما بذاته بل يظل في نظرهم فرعا من العلوم المجتمعة.

3-الأنثروبولوجيا. Anthropologie علم الإنسان / الإناسة:

تعد المرحلة الثالثة والأخيرة من البحث، وهي مرحلة معرفة الإنسان معرفة إجمالية، وتسعى إلى استخلاص نتائج قابلة للتعميم على كل المجتمعات البشرية سواء كانت مدنية حضارية أو قبيلة بدائية.⁴ تهتم بدراسة الإنسان في جوانبه المتعددة الفيزيائية (فيزيولوجيا وتطوريا) والثقافية (الاجتماعية والنفسية والجغرافية...)، أي أنها تحاول أن تمس جميع جوانب العلوم الإنسانية التي تعرف الإنسان.

تتخذ الأنثروبولوجيا معنى أشمل ينحو إلى التفسير، وكما يقول ك.ل.ستروس فهي تتطلع إلى تكوين معرفة قابلة للتطبيق على التطور البشري بأسره، ومعنى ذلك التعميم.

الموضوع الأساسي للأنثروبولوجيا-دراسة الآخر-الغريب-البعيد

³-جاك لومبار، 1997، ص13.

⁴-جاك لومبار، 1997، ص16.

-دراسة الآخر ونشأة النياسة:

1-مرحلة الانبهار:

-الدراسة الوصفية للآخر المختلف عن الغرب:

كيف يمكننا من خلال دراسة وتحليل مفهوم الآخر أن نكتشف الأساليب والطرق المنهجية التي أدت إلى إنشاء اتجاهات ومدارس في الأنثروبولوجيا؟

-التأمل والبحث في أحوال الآخر الأجنبي البعيد والغريب في أطواره خلال القرنين 18 و 19 وتم خلال القرن 19 إصدار دليل الأبحاث الأنثروبولوجية للقيام بدراسات ميدانية موجهة نحو اكتساب المعارف.

2-مرحلة الايديولوجيات:

-الاستهانة بالثقافات الأجنبية هي بداية لبلورة مواقف وإيديولوجيات:

تكونت الدراسات العنصرية التي وصف الغريب بالمتوحش والمتخلف والبدائي، وظل ينعت بالبري وبالهجمي لغرض استعمارهم والهيمنة على ثقافته وخيراته.

لقد تبلور الاتجاه الأول في الدراسات الوصفية للآخر أي الإثنوغرافيا- Ethnography وهي المرحلة الأولى من العمل لمرحلة جمع المعطيات في نظر الأنثروبولوجي الفرنسي ليفي شتراوس.

3-مرحلة الاعتراف بالآخر:

-المقاربة النقدية من خلال فهم الآخر (تقدير الثقافات الأجنبية):

ظهرت هذه المقاربة لتؤكد أن الآخر الذي ظل ينعت بالبري وبالهجمي، والذي اتخذت إزاءه مواقف وتشكلت معه إيديولوجيات لقي في مرحلة لاحقة التقدير والاحترام والاعتراف بوجوديته وثقافته، إذ أصبح من الواجب التعامل معه والاحتكاك به من أجل التبادل المعرفي.

كما أن الدراسات الميدانية التي أجراها الباحثون بين تلك الشعوب التي وصفت بالبدائية غيرت من وجهة نظرهم عندما وجدوها على عكس ما كانت

توصف به بأنها بسيطة وساذجة وصغيرة ومعزولة ولا تاريخ لها، وأن ثقافتها طفلة بالنسبة لتعقيدات الثقافة الحالية وبخاصة الثقافة الأوروبية. حيث بينت المعلومات المجمعة عن هذه الشعوب أنها ليست بسيطة في بنائها الاجتماعي والثقافي، وإنما هي في كثير من الأمور أكثر تعقيدا من الثقافة الأوروبية نفسها، كما أنها ليست صغيرة، وغير معزولة وأن تاريخها متحرك وتراكمي وليس جامدا وسكونيا. وقد أكد هذا الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس عندما قال: " لا وجود لشعوب طفلة. وإن سكان أستراليا الأصليين الذين يبدون لنا في غاية البساطة والبدائية، إنما يتمتعون بتنظيم عائلي شديد التعقيد، بحيث يستطيع المرء أن يضيف، أن تنظيمنا العائلي يصبح بأدائه بسيطا للغاية".

2

مفهوم البحث:

البحث هو نشاط علمي يتمثل في جمع المعطيات وتحليلها بهدف الإجابة عن إشكالية أو مشكلة معينة.

وتجمع المعلومات من الكتب والأرشيف، أو من الميدان (الحقل)، ولهذا نجد نوعين من البحث:

بحث أساسي نظري، وبحث تطبيقي عملي ميداني.

وتنقسم البحوث أيضا بناء على نوع المعطيات المتحصل عليها.

المعطيات الكمية: هي المعلومات التي تكون قابلة للقياس، وهنا نكون أمام بحث كمي.

المعطيات الكيفية: عندما يصعب قياس بعض الظواهر قياسا كميا نلجأ إلى هذه المعطيات، التي تفرض علينا الطريقة الأنثروبولوجية وأدواتها. أي تقنياتها مثل: دراسة نمط الحياة، سيرة وحياة بعض الشعوب، عادات وطقوس معينة.

مفهوم البحث الميداني ومميزاته:

الميدان هو المخبر (المعمل) = Field work - العمل الحقلّي/الميداني) الذي يشتغل فيه الأنثروبولوجي

مفهوم الميدان بالنسبة لعالم الأنثروبولوجيا هو الحضور الطويل في المكان وإعداد علاقات صداقة وتعرف مع الناس، والسماع إليهم.

الميدان هو عمل وليس مرور مر الكرام.

-نستخدم في البحث الميداني المنهج وتقنياته.

المنهج: هو مجموعة منظمة من العمليات، تسعى لبلوغ هدف معين. والمنهج هو التنظيم والترتيب للمعلومات لتفادي التكرار وعدم الضياع.

التقنيات: هي الأدوات أو الوسائل التي يستخدمها الأنثروبولوجي إلى جانب المنهج من أجل جمع المعلومات من الميدان

-تجربة بعض علماء الأنثروبولوجيا في البحث الميداني:

فرانس بواس: يعتبر المؤسس الحقيقي للأنثروبولوجيا الأمريكية وسيد الملاحظة المباشرة. درس مجتمع الاسكيمو والهنود في الشمال الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية.

مالينوفسكي: دراسته الميدانية المشهور في جزر التروبرياندي في المحيط الهادئ، (الطرف الشرقي لغينيا الجديدة) وتقع في مالينيزيا وهو مؤسس الملاحظة بالمشاركة. واكتشف نموذج الكولا

ريموند فيرت: دراسات في جزيرة التيكوبيا جزيرة في غينيا الجديدة جنوب جزيرة سانتا كروز.

إيفانس بريتشارد: دراسات ميدانية في: الأزاندي في السودان واكتشف طريقة عيشه على الالتقاط والزراعة البسيطة، ودراسة النوير جنوب السودان، ومجتمع البركة مجتمع بدوي سوداني.

انتعاش البحث الميداني:

شجعت الدول المستعمرة بعد الحرب العالمية الثانية علماء الأنثروبولوجيا للنزول إلى الميدان لمعاينة واكتشاف الحقائق عن المستعمرات الأوروبية في إفريقيا وآسيا لجمع كمية كبيرة من المعلومات تسمح بالتغلغل فيها وإصابة أهدافها بدقة.

أجريت كذلك دراسات ميدانية مشهورة على الجزائر في كل من الصحراء وفي منطقة القبائل.

وبهذا انتقلت الأنثروبولوجيا من المكاتب عند الأوائل من الرحل والمستكشفون للمجتمعات البدائية حتى أوائل القرن 20، تطلب العمل الموضوعي كتابة التقارير من خلال الإقامات المطولة في الحقل (الميدان) وتستخدم فيها المعاينة الشخصية للباحث.

خصوصيات البحث الأنثروبولوجي (الميداني) وشروطه:

إن ما يميز البحث الأنثروبولوجي عن بقية البحوث الاجتماعية الأخرى هو أن فعاليته تكمن في المعاينة والتحقيقات الميدانية التي تفرض على الباحث التفاعل مع مختلف الظواهر ومقارنتها. ومن أهم الشروط التي ينبغي أن يحترمها المهتمين بهذا المجال ما يلي:

1- ينبغي على الباحث حين يقوم بدراسته أن يعرف أن كل الظواهر الاجتماعية هي مترابطة و متكاملة . بمعنى دراسة المجتمع تكون في شكل دراسة نظام متكون من أجزاء و وظائف ، حيث إذا طرأ تغيير على أحد الأجزاء يتبعه تغيير في كامل النظام ، و لا يمكن فهم وظيفة النظام إلا بفهم وظائف الأنساق المكونة له، حيث أن فهم وظيفة الأسرة لا يمكن إلا عن طريق فهم القانون، الاقتصاد، الدين، الأخلاق، العادات ... الخ.

وعلى الباحث الأنثروبولوجي أن يتميز بالصفة الكلية للظواهر أي دراسته الظاهرة في علاقاتها بالظواهر الأخرى و ليس بالصفة التخصصية مثلما يفعل عالم الاقتصاد أو القانون ...الخ في بعض الأحيان و لكن بدون نتيجة .

2- لابد على الباحث الأنثروبولوجي أن يقوم بدراسة الجانب التطوري للظاهرة حتى يتمكن من معرفة الأسباب المؤدية، إلى التطور الاجتماعي، لأن الدراسة التكاملية تتطلب الدراسة الدياكرونية (التطورية) لمعرفة الأسباب والنتائج ثم استخلاص القوانين واستثمارها في البحوث الأخرى وهذا هو المغزى الأساسي من البحث العلمي .

3- يتوجب على الباحث أن يعتمد على الملاحظة المباشرة والملاحظة الغير المباشرة في وصف الظواهر . فالطريقة الأولى هي الطريقة العلمية لأنها تفرض على الباحث المعاينة الشخصية و كذلك الاندماج في المجتمع و تعلم لغته و عاداته من أجل التعمق أكثر في التفسير.

أما الطريقة الثانية فعادة ما تكون عن طريق قراءة آراء و أرشيفات و مؤلفات ومعلومات عن الظاهرة التي جمعها آخرون أو الاعتماد على الروايات و الأساطير والرحالة و المسافرين .

4- على الباحث أن يكون أميناً أثناء الملاحظة و أن ينتهج التمحيص و الدقة .

5- على الباحث أن يستعين بأدوات و وسائل تساعد على جمع البيانات بصورة فعالة كآلة التصوير ، والخرائط ، و أجهزة تسجيل المقالات ...الخ

6- يجب على الباحث الأنثروبولوجي أن يوظف بعض التقنيات المستعارة من العلوم الأخرى كالاستمارة في علم الاجتماع أو الإحصاء من العلوم الاقتصادية والرياضية.

المراجع:

- علي المكاوي، قضايا منهجية معاصرة، في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جامعة القاهرة، د/ت
- محمد الجوهري، علم الفولكلور، دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية، مكتبة النصر للنشر والتوزيع، القاهرة 2004.
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، من منشورات موقع اتحاد كتاب العرب على شبكة الأنترنت: www.awu.dam.org دمشق، 2004
- وسام العثمان، المدخل إلى الأنثروبولوجيا، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2002.
- أحمد الخشاب، دراسات أنثروبولوجية، دار المعارف، مصر 1970.
- جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1. 1997بيروت.
- علي عبد الله الجباوي .علم خصائص الشعوب .علم الأقاليم ، التلويين ، دمشق 2007.
- كلود ليفي ستروس، الأنثروبولوجية البنيوية، ترجمة المركز الثقافي الغربي، بيروت 1995 .
- بيار بونت، ميشال إيزار، معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، 2006.
- موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية-تدريبات عملية - دار القصبه للنشر -الجزائر، 2004.

-دليو فضيل، المنهج البيوغرافى، استعمال السير الذاتية والحياتية فى علم الاجتماع، مجلة العلوم الاجتماعية، ع2، 1999.